احمد شوقي *

١٨٦٨ - ١٩٣٢

دراسة تحليلية لحياته وشعره

بقلم الأستاذ محمد خورشيد

أستاذ الأدب العربي بثانوية نابلس [فلسطين]

مقدمة

ليس في وسعنا أن ندرس «شوقي» الآن دراسة علمية وافية، لأن مؤلفاته جميعها لم تطبع بعد، ولكن الكثير المطبوع منها ؛ وما نشرته الصحف والمجلات من منظومه الذي لم يظهر في ديوانه بعد، يساعدنا على إصدار حكم قريب إلى الحقيقة . ولابد لنا من الاعتراف بأن دراسة شوقي موضوع لايزال بكرا ، وأن كثيراً من الذين كتبوا عنه من معاصريه قد أصغوا إلى وحي العاطفة لا إلى وحي العقل ، وهم بين مغرق في المدح ومسرف في الذم . أما الذين كتبوا عنه خدمة للأدب والتاريخ ، فقليلون لايمكن أن يرجع إلى آرائهم كمرجع علمي قيم ، لأن جوانب أبحاثهم غير مستفيضة ؛ إذ ليس في وسعهم أن يشبعوا شعر شوقي درساً وتمحيصاً في مدة وجيزة ، ولعل الأحكام التي سيصدرها على شوقي أدباء الأعوام القادمة ، ستكون أقرب إلى الحقيقة من أحكامنا ؛ لأنهم سيرجعون إلى ما كتبناه عن شاعرنا ومهدنا لهم به سبل البحث والتنقيب ، فيأخذون بما أصبنا ويجتنبون ماضللنا فيه سواء السبيل . وكلما مرت الشهور والأعوام على وفاة النابهين أمثال شوقي ، ارتفع قدرهم وظهرت للباحثين المنصفين نواح جديدة من عبقريتهم ونبوغهم ؛ ولنا في المتنبي خير شاهد على ماتقول ، إذ لم يسلم أبو الطيب من خصوم ألداء ، حياً وميتاً ، ولم يعترف له بالامتياز على من سبقه وعاصره من الشعراء ، إلا بعد إذ قضى معاصروه ومنافسوه ؛ ووكل أمر الكتابة عنه إلى أناس يكتبون بعقلهم لا بعاطفتهم : أناس يكتبون للتاريخ ، لالائتلاف إلى زيد أو عمرو ، اكتساباً لرضا أو توصلا إلى مغنم .

---

* المقال الافتتاحي في كتاب « أمير الشعراء شوقي بين العاطفة والتاريخ » الذي سيظهر قريبا .

المرحوم أحمد شوقي بك

ومما يؤسف له أن كثيراً من أدبائنا لا يفهمون النقد الأدبي إلا على أنه التنقيب عن المثالب والعيوب ، ويغالي بعضهم فيستوحي المساوىء الأدبية من خياله ويختلقها اختلاقاً ؛ وإذ يودعها صفحات الطرس لا يرى مانعاً من حشوها بالسباب والشتائم ، مع أن النقد الأدبي يتطلب ذكر الحسنات والسيئات على السواء بعبارات أدبية ولهجة لطيفة . والنقد متى شوهته العبارات البذيئة ضاعت قيمته وراحت الفائدة المرجوة منه .

النهضة الأدبية

النهضة الأدبية في مصر مدينة للحملة الفرنسية التي جاءت إلى مصر عام ١٧٩٨ ، فمنذ ذلك الحين بدأ الشرق يتصل بالغرب وأدبه وعلومه ، وشرعت مصر في إرسال البعثات العلمية إلى أوربا ، وبدأت أوربا ترسل وفوداً من علمائها ومستشرقيها إلى مصر . فكان هذا دافعاً الأزهريين أنصار المدرسة القديمة على إحياء الأدب القديم ، فطبعوا من كتبه ما تيسر لهم ، فالتقت الثقافتان العربية والغربية في عقول النشء المصري ؛ واهتمت المدرسة الحديثة بإيجاد أنصار لها ، كما فعلت المدرسة القديمة ؛ وكان التنافس شديداً ، ولكنه جعل كلا من المدرستين تقترب من الكمال الذي تنشده . وشجع الخديو اسماعيل تلك النهضة تشجيعاً عظيما من الوجهتين الأدبية والعلمية ؛ وشرع المصريون — بعد إذ دبت فيهم تلك الروح الأدبية — ينشدون المثل الأعلى في الأدب ، ومازالت المدرستان سائرتين إلى الأمام حتى كتب السبق أخيراً للمدرسة الحديثة وفق ناموس النشوء والتدرج .

ولد «شوقي» أيام نشوب تلك الحرب الأدبية بين القديم والحديث بباب اسماعيل ؛ فكان من الطبيعي أن تتأثر نفسه الحساسة — وهو الشاعر المطبوع — بكل ماحوله من العوامل السياسية والاجتماعية والأدبية . أما تاريخ حياة شوقي ، ففي وسعك أن تقرأه في مقدمة الشوقيات طبعة سنة ١٨٩٨ ؛ ومنه تعرف الفضل العظيم الذي أداه الخديويان توفيق وعباس بتشجيعهما «شوقي» وحثهما إياه على الانصراف للنظم والتجويد فيه . وتعرف أيضاً أن شاعرنا استفاد كثيراً من رحلاته إلى الغرب واطلاعه على دواوين شعرائه وكتب أدبائه ؛ وتعرف كذلك أنه لم يفته الاطلاع على الآداب : الفارسي والتركي ؛ وفي كل هذا مافيه من شحذ للنبوغ والعبقرية .

نبوغ شوقي

إن اجتماع العناصر العربية والتركية واليونانية والشركسية في دم شوقي سبب من أهم أسباب نبوغه ؛ لأن التزاوج بين أفراد يختلفون جنسية ودماً ، ينتج نسلا سليم الجسم والعقل .

وحصر التزاوج فى عائلة مابين ذكورها هى وأناثها هى فقط يولد نسلا ضعيفاً فى جسمه وعقله، ذلك بأنه إذا وجدت عاهة وراثية فى تلك العائلة ، تتضخم وتزداد تمكناً وظهوراً ، كلما ابتعد الأحفاد عن الجد الأول ، الذى لاتكاد تظهر فيه .

أشعار شوقى

اشتهر شوقى بعفة اللسان ، فهو لم يهج أحداً ، ولم يسمع عنه أنه نظم فى العبث والمجون ، رغم ظروف كثيرة أحاطت به وكان كل مافيها يتطلب العبث والمجون . هذا مايرويه عنه الذين اتصلوا به ، ولعله نظم فى هذين النوعين قصائد لم يطلع أصحابه عليها ، وربما أطلعهم عليها ولم يشاءوا نشرها وفاء له وإبقاء على سمعته، كما هى الحال مع معظم الشعراء . وإذا صح أن شوقى نزه شعره عن العبث والمجون ، فالسبب الوحيد الذى أعلل به هذه الظاهرة،هو تغلغل العاطفة الدينية فى نفسه .

وعرف عنه التواضع والخجل ؛ فكان إذا نظم قصيدة لتلقى فى حفلة عامة أعطاها أحد أصدقائه ليتلوها عنه ، وقلما حضر سماعها تواضعاً منه ، وهرباً من الخجل الذى يستحوذ عليه حين يظهر له الحاضرون إعجابهم بما نظم من الدرر .

ومن ميزات شوقى إحجامه عن مجاراة خصومه الذين كانوا يكيلون له النقد ألوانا ، حتى لقد لامه على ذلك بعض الأدباء ، وأرى أن فى إهماله أمرهم أنجع وسيلة للرد عليهم .

ولاأقصد من هذا أن ليس هنالك نقاد مخلصون ،أفادوا شوقى والأدب العربى معاً بما أملته عليهم النزاهة والصراحة . فشاعرنا إنسان على كل حال ، والإنسان غير معصوم من الخطأ .

شوقى والنقاد

ومن غريب التناقض فى النقد والتطرف فيه ما كتبه أحد المحدثين فى مقال ينعى فيه على أبى سعيد محمد بن أحمد العبيدى ، مؤلف كتاب « الإبانة عن سرقات المتنبى » قوله : إن المتنبى أخذ بيته المشهور :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لايظلم

من قول محمد بن البيدق الشيبانى :

الظلم طبعك والعفاف تكلف والطبع أقوى والتكلف أضعف

وهو مصيب فى استنكاره تحامل أبى سعيد هذا على المتنبى ؛ ولكن الغرابة أن الذى يستنكر تحامل أبى سعيد هو نفسه الذى يتحامل على شوقى ويقول انه أخذ صدر بيته :

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب وينصر دين الله أيان تضرب

من صدر بيت المتنبى :

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب

وأغرب من هذا أنه ينسب إلى شوقى سرقة كلمة « أيان » الواردة فى عجز البيت السابق من كلة مثلها وردت فى عجز بيت من أبيات المتنبى هو :

ويوم كليل العاشقين كمنته أراقب فيه الشمس أيان تغرب

فهل من شروط التجديد أن يتجنب الأديب استعمال كل كلة ذكرها بعض من جاء قبله من الشعراء والكتاب ؟ وهل لدينا مقياس نقيس به أدب القدماء ، ومقياس آخر لأدب المحدثين ؟ أم ترى تأصلت فينا عادة تقديس القدماء وتنزيههم عن كل عيب ، بحيث يؤاخذ شوقى على أمر يجب ألا يؤاخذ عليه المتنبى ؛ لأنه المتنبى ولأنه قديم ، ولأن الأدباء اعتادوا الإعجاب بكل ماينسب إلى المتنبى ؟ هنالك أبيات كثيرة يكاد النقاد يقولون عنها إن شوقى سرق حرف العطف فيها من المتنبى ؛ كأن اللغة وقف على المتنبى دون سواه . ولا ينتظر أن يجعل الشاعر أبياته جميعها مبتكرة المعنى ؛ ولا بد من توارد الخواطر بينه وبين الشعراء الذين تقدموه . وهذا ـ فى نظرى ـ لايعد سرقة إلا إذا أسرف الشاعر فى نظم أبيات تعمد أخذ معانيها من غيره . وذلك القول لايعنى أن شوقى لم يحاول أحياناً أخذ صياغة المتنبى لقوله فى مدح الخديو السابق :

يود من الأرواح ما لا توده ويفتك فيها مسرفا وهى جنده

متشبها بصياغة بيت المتنبى فى كافور :

أود من الأيام ما لا توده وأشكو إليها بيننا وهى جنده

ولكن هذا لايحط كثيراً من قدر الشاعر ، إذ ربما تكون كثرة مطالعة شوقى ديوان المتنبى ، هى التى جعلت الصياغة متشابهة فى أبيات الشاعرين . وإذا تعمد « أبو على » التشبه بصياغة بيات قليلة من أبيات أبى الطيب ، فلكل صارم نبوة .

والأنانية صفة أخرى واضحة فى شعر شوقى أصابت به للفخر والإعجاب بنفسه ، حتى فى رثائه والدته ذلك الرثاء الذى نظمه بعد ساعة ـ كما قيل ـ من وصول نعى والدته إليه ، وهو فى إسبانيا يعلل نفسه بالعودة إلى وطنه ليرى أمه المحبوبة ، ففى ظروف نفسية كهذه ينسى الفرد كل شىء إلا ألمه ومصيبته بفقد أعز الناس لديه ؛ أما شوقى « الأنانى » فإنه قد ذكر وقت ألمه أشياء أخرى ، ولم يختتم قصيدته فى رثاء والدته إلا بهذه الأبيات :

أتيتِ به لم ينظم الشعر مثله وجئتِ لأخلاق الكرام به نظما

ولو نهضت عنه السماء ونخضت به الأرض كان المزن والتبر والكرما

وانظر الأنانية واضحة فى ذلك البيت الذى قاله فى نجله البكر وفلذة كبده « على » ، حين أكان يافعاً :

وسوف يعلم بيتى أنى أنا الفسل وحدى

ولست أعرف شاعراً بلغت به الأنانية والإعجاب بالنفس ذلك المبلغ الذى وصلت إليه أنانية شوقى مع نجله المحبوب ؛ وأنا ممن لا يرون عاراً فى اتباع أقوال « ماكس نوردو » الكاتب النمسوى الاجتماعى الشهير القائل « لا تذكر نفسك إلا بخير ولا تقف فى هذا عند حد ؛ بل عظم نفسك وترنم بالثناء عليها ، واسرد مناقبها ومآثرها ، واستعمل لذلك جهدك من الفصاحة الخلابة ، وأضف إلى نفسك أفخم الصفات » ، و « اعلم أن سواد الناس لا طاقة لهم بالتمييز والحكم ، فاحكم لهم أنت » ، و « ليكن ظهورك بينهم بجلبة يسمعها الأصم ويبصرها الأعمى » ؛ ولكن شوقى تمادى فى اتباع هذا الرأى وأسرف فى ذلك أيما إسراف .

وله فى الفخر أبيات جميلة نورد بعضاً منها ، قال :

رواة قصائدى فاعجب لشعر بكل محلة يرويه خلق

وقال :

ياواحد الإسلام غير مدافع أنا فى زمانك واحد الأشعار

وقال مخاطباً السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٥ :

ومازلت حسان المقام ولم تزل تليني وتسرى منك لى النفحات
ومن كان مثلى أحمد الوقت لم تجز عليه ولو من مثلك الصدقات
ولى درر الأخلاق فى المدح والهوى وللمتنبى درة وحصاة

والبيت الأخير يدلنا على أن شوقى قد وضع نصب عينه قبل بلوغه الأربعين من العمر ، إزاحة المتنبى عن عرش إمارة الشعر ليجلس مكانه . وسينبئنا البحث العلمى الذى سيقوم به أدباء الأعوام المقبلة ، ما إذا كان شوقى قد حقق إربه ، أم قضى دون تحقيق أمنيته .

ومما عرف عن شوقى ، أنه كان باراً بوالديه وأولاده وذويه ومن اتصلوا به . وكان كريماً يواسى الفقير ويلهوز بما تجود به يمينه . وكان يعطف على المرضى ويرحم الضعفاء ، ورأى من الناس غشهم وخداعهم . فآثر اجتنابهم وقلة الاختلاط بهم .

مؤلفاته

(أ) فى عهد الشباب

الروايات : لادياس ، ورقة الآس ، على بك الكبير ، مذكرات بلتاجور ، الشوقيات : الجزء الأول

(ب) بعد عودته من المنفى عام ١٩١٩

الشوقيات ، الجزءان الأول والثانى ، رواية مصرع كليوبترا ، مجنون ليلى ، قمبيز

وعلي بك أو دولة المماليك ، عنترة . وكل هذه الروايات شعرية ، ثم أميرة الأندلس وكتاب أسواق الذهب ، من النثر .

(ح) تحت الطبع أو طبع أخيراً

كتاب عظماء الأسلام ، الشوقيات : الجزءان الثالث والرابع ، وروايتا السيدة هدى والبخيلة ، ثم كشكول جامع لقصائد لم تنشر . وقصائد سهلة للأطفال وأغان الخ . وربما وقع في ثلاثة مجلدات .

فيكون عدد مؤلفاته جميعها اثنين وعشرين . والسبب في كثرة إنتاجه هذا ، انصرافه إلى الأدب العربي مدة أنافت على أربعين عاماً ، وإن كان جل هذا الإنتاج في الخمس الأخير من حياته ، بعد رجوعه من منفاه في الأندلس . وفي هذا ما فيه من جهد ونشاط وعبقرية .

نثره

إن نثر شوقي قوافٍ شاردة ، إذا لم شعثها كانت من أبلغ الشعر . ولا فرق في ذلك بين نثره المسجوع الذي اقتفى به أثر القدماء في كتابه « أسواق الذهب » ، ونثره الجميل في روايته « أميرة الأندلس » . وإليك نموذجاً من نثره المسجوع ، قال في البحر الأبيض :

« البحر الأبيض المتوسط سيد الماء . وملك الدأماء ، مهد العلية القدماء ، درجت الحكمة من لجه ، وخرجت العبقرية من ثبجه ، ونشأت بنات الشعر في جزره وخلجه ، بدت الحقيقة من يبسه ومائه ، وجرب ناهض الخيال جناحيه بين أرضه وسمائه » .

وإليك نموذجاً من نثره المرسل ، قال بلسان المعتمد بن عباد ملك إشبيليه :

« انقلوا أيها النبلاء إلى الملك ألفونس ما سمعتم ، وصفوا له ماوأيتم ، وتحدثوا في طول بلادكم وعرضها أن الأسد العربي لا يشتم في عرينه ، وأنه لو غلب على غايته ، حتى لم يبق له منها إلا قاب شبر من الأرض ، ما استطاعت قوى الإنس والجن أن تنفذ إلى كرامته من قاب هذا الشبر » .

وهو شاعر في نثره مثل ماهو في نظمه . أما كتاب « أسواق الذهب » ، فلو نسب إلى القرن الثالث أو الرابع الهجري مثلاً ، لكنا استسغنا أسلوبه المسجوع . ولكن ليس هناك الآن مايغرينا على استساغة أسلوب يعتمد على الديباجة اللفظية .

محمد خورشيد